أعلام الفكر في عصر الحروب الصليبية :

عز الدين بن عبد السلام

٥٧٧ — ٦٦٠ ه

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

نشأ في شظف من العيش ، ورفعته ثقافته إلى أن أصبح ينادي الملوك بأسمائهم ، ولم يُعْشِه المجد عن الحقّ ، فنادى على رءوس الأشهاد بخطئه يوم بان خطؤه ، ولم يدعه حب السيطرة والسلطان إلى النزول عن كرامته أو الرجوع عن معتقده ؛ ولم تهيأ له وسائل الثقافة صغيراً ، ولكنه جد حتى صار أستاذ عصره وأعلم أهل زمانه .

ولد بدمشق حيث تفقه على فخر الدين بن عساكر ، وجمال الدين بن الحرستاني ، وقرأ الأصول على سيف الدين الآمدي ، وأخذ الحديث عن القاسم بن عساكر ، ودرس النحو ، ورحل إلى بغداد ، فأقام بها أشهراً. ونبغ العز في أصول الفقه ، وأصول الدين ، والتفسير ؛ وبرع في الفقه حتى صار أعلم أهل عصره فيه ، قالوا : وانتهى به الأمر إلى مرتبة الاجتهاد فصار يفتي بما يؤدي إليه اجتهاده ؛ وكان موفقاً سديداً في فتاويه .

ولى في دمشق خطابة الجامع الأموي والإمامة فيه ؛ قال أبو شامة أحد تلامذته: « وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة » ؛ فأبطل صلاتي الرغائب ونصف شعبان ، وفي طبقات الشافعية للسبكي (ج ٥ ص ١٠٥) نص فتواه في تلك الصلاة ، وبيان الأسباب التي حملته على القول بإبطالها . وما كان عز الدين يسجع في خطابته ، بل يقولها مترسلا ، واجتنب فيها الثناء على الملوك ، واستعاض عن ذلك بالدعاء لهم .

ودرّس عز الدين بالزاوية الغزالية بجامع دمشق ، حيث قصده الطلبة من الآفاق، يقتبسون منه ويأخذون عنه ، وارتفعت مكانته حتى راسله بعض ملوك عصره وأحبوا لقاءه ؛ فهذا الناصر داود بن المعظم عيسى يرسل إليه قصيدة يحزن فيها على ما أصاب الإسلام عندما أغارت الفرنج على نابلس ويقول له فيها :

أيا ليت أمي أيم طول عمرها ... فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد ... لبيب أديب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا ... فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملا ... أصيبت بما ضمت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت ... تشد إليّ الشدقيات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم ... ولم أر في الإسلام ما فيه من خل

وكان الأشرف موسى يلهج بذكره ، ويؤثر الاجتماع به ، وقد دار بينهما نقاش انتهى باقتناع الأشرف برأي عز الدين وعقيدته ، وغرامه بكتبه وتآليفه ، ودعوة الناس إلى قراءتها والعمل بفتاويه . فلما مرض الأشرف مرض الموت أرسل إلى العز يستزيره فجاء إليه ، فلما استنصحه الأشرف نصحه العز بأن يولي وجهه إلى حرب التتار ، لا إلى حرب أخيه الكامل ، وكانت جفوة قد حدثت بينهما ، فقبل الأشرف نصيحته واستزاده ، فطلب منه العز أن يرسل إلى نوابه بحرم عليهم شرب الخمر والفسق وفرض ضرائب على المسلمين ، فأطاع أمره . ثم أمر له الأشرف بألف دينار ، فردها قائلا : « هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من أمور الدنيا » ؛ وعندما ملك الكامل دمشق ، وكانت الصلة بينهما وثق ، وثقة الكامل فيه عظيمة ، ولاه قضاء دمشق بعد ما اشترط عليه عز الدين شروطاً كثيرة قبلها الكامل . فلما ملك الصالح اسماعيل دمشق ، وصعد نجم الدين أيوب إلى عرش مصر خاف الصالح اسماعيل خوفاً منعه المنام والطعام والشراب ، وصالح الفرنج على أن ينجدوه على الصالح أيوب ، ويسلم إليهم صيدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين . ودخل الفرنج دمشق لشراء السلاح ليقاتلوا به عباد الله المؤمنين ، فشقّ ذلك على الشيخ مشقة عظيمة ، وعلى المتدينين من بائعي السلاح ، واستفتوا الشيخ في بيع الفرنج السلاح ؛ فقال : « يحرم عليكم البيع لهم ؛ لأنكم متحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين » ؛ ويظهر أن عز الدين قد أثاره هذا الأمر ، فنال من الصالح اسماعيل على المنبر ولم يدع له ، وجدد دعاءه على المنبر ، وكان يدعو إذا فرغ من الخطبتين قبل نزوله من المنبر بقوله : « اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشداً تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه من

معصيتك » ؛ والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين ، والنصر على أعداء الله الملحدين ، فعلم السلطان بذلك ، فأصدر أمره بعزل الشيخ واعتقاله ، فبقى مدة معتقلا ، ثم أطلقه على أن يغادر بلاده ، فخرج عبد العزيز من دمشق ؛ ثم بدا للصالح اسماعيل أن يعيده ، فأرسل خلفه رسولا أخذ يسوسه ، ويلين له القول ، وقال له : « بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير » ؛ فقال : والله يا مسكين ، ما أرضاه أن يقبل يدى فضلاعن أن أقبل يده . ياقوم، أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به » .

وبينما هو فى طريقه إلى مصر مر بالكرك ؛ فسأله صاحبها الإقامة عنده ، فرأى العز أن الانتفاع به سيكون محدوداً فى مثل هذه المدينة ، فقال له : بلدك صغير على علمى ، ومضى إلى مصر فقدمها سنة ٦٣٩ ، واستقبله علماؤها بالإجلال والإكبار ، وبالغ عبد العظيم المنذرى حافظ مصر فى الأدب معه ، وامتنع من الفتيا لأجله ، وقال : كنا نفتى قبل حضوره ، أما بعد مجيئه فنصب الفتيا متعين فيه . وتلقاه الصالح أيوب عدو الصالح اسماعيل خير لقاء وأكرمه ؛ وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر والقضاء بها وبالوجه القبلى ، وفوض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ، فقام بالمنصب أتم قيام ، وتمكن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يخاف فى الله لومة لائم . وكان يسلك فى الإرشاد طريقاً عنيفاً . قال تلميذه الباجى : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان فى يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه فى زينته ، وأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يدى السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : « يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : « هل جرى هذا ؟ » فقال : « نعم ، الخانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ؟ ! ينادبه كذلك بأعلى صوته ، والجند واقفون ، فقال : يا سيدى ، هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبى » ، فقال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة . فرسم السلطان بإبطال تلك الخانة . قال الباجى : سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع هذ الخبر : يا سيدى كيف الحال ؟ فقال : يا بنى ، رأيته فى تلك العظمة ، فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ؛ فقلت : يا سيدى ، كيف الحال ؟ فقال : « والله يا بنى ، استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان قدامى كالقط » .

وحدث أن أستاذ دار الصالح وهو فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ عمد إلى مسجد بمصر فعمل على ظهره بناء لطبل خانه ، وظلت تضرب هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين أمر بهدم ذلك البناء ، ومضى بجماعته وهدمه ، وعلم أن السلطان والوزير يغضبان ، فأسقط عدالة الوزير ، وعزل نفسه من القضاء . فعظم ذلك على السلطان ، وقيل له : اعزله عن الخطابة ، وإلا شنع عليك على المنبر كما فعل فى دمشق فعزله . وقد أمضى الخليفة المستعصم ببغداد حكم عز الدين فى فخر الدين ، فلم يقبل رسالة من السلطان كان راويها للرسول أستاذ الدار .

أقام عز الدين فى منزله يشتغل عليه الناس ، ويدرس ، وأخذ فى التفسير فى دروسه ، حتى إذا بنى السلطان المدرسة الصالحية فوض أمر تدريس الشافعية بها إلى عز الدين .

وكان العز مع الفقهاء الذين قدموا على المعظم توران شاه ، وناظرهم السلطان ، وشهد معركة المنصورة سنة ٦٤٨ مجاهداً فى سبيل الله ، ولم يزل مرعى الكرامة فى عصر السلاطين ، يعتمدون عليه ويستشيرونه ، ويأخذون برأيه ، ومن ذلك أن التتر عندما هاجموا البلاد الإسلامية جمع المظفر قطز القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه فى أمر التتار ، وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، فحضروا فى دار السلطنة بقلعة الجبل ، وحضر الشيخ عز الدين والقاضى بدر الدين السنجارى قاضى الديار المصرية ، وغيرهما من العلماء وأفاضوا فى الحديث ، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام . وخلاصة ما قال أنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم تفاقم ، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى فى بيت المال شىء ، وتبيعوا ما لكم من الأدوات المذهبة والآلات النفيسة ، ويقتصر الجند على مركوبهم وسلاحهم ، ويساووا هم والعامة . وأما أخذ الأموال من العامة

مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا .

وكان الظاهر بيبرس يعظمه ، ويقف عند أقواله وفتاويه ، وأقام الخليفة بعد استشارته ، ومما يدل على منزلته الرفيعة أن الظاهر لم يبايع المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه عز الدين ثم تلاه السلطان ثم القضاة (١) .

وفى عهد الظاهر بيبرس فى ١٠ جمادى الأولى سنة ٦٦٠ مات عز الدين بعد أكثر من عشرين عاماً قضاها فى مصر يحيط به الإكبار والإجلال . ويقال : إن السلطان أرسل إليه لما مرض ، وقال له : عين مناصبك لمن تريد من أولادك ، فقال عز الدين : ما فيهم من يصلح ، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضى تاج الدين فقوضت إليه . وشهد الظاهر بيبرس جنازته ، وصلى عليه ، وحضر دفنه ، كما شيعه الأمراء والخاصة والأجناد وطبقات الشعب . ومما يدل على ما وصل إليه عز الدين من النفوذ ما يروى من أنه لما مرت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق الذين معها قال لبعض خواصه : الآن استقر أمرى فى الملك؛ لأن هذا الشيخ لو أمر الناس فى بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره .

ولعز الدين بن عبد السلام مؤلفات فى الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام والتصوف .

فى الفقه له كتاب القواعد الكبرى الذى قال عنه تاج التراجم : ليس لأحد مثله . وقال عنه السبكى : هذا الكتاب وكتاب مجاز القرآن شاهدان بإمامته وعظيم منزلته فى علوم الشريعة . واختصر القواعد الكبرى فى قواعد صغرى . وله فى الفقه أيضاً كتاب الغاية فى اختصار النهاية . وكتاب الإمام فى أدلة الأحكام ، والفتاوى الموصلية ، والفتاوى المصرية ، وهى مجموع مشتمل على فنون من المسائل والفوائد .

وله فى التفسير كتاب سماه بمجاز القرآن (بدار الكتب رقم ٣٢ تفسير) ورسالة تسمى فوائد العز بن عبد السلام وهى أسئلة وأجوبة متعلقة بالقرآن الكريم (مخطوطة بدار الكتب رقم ٨٣٦ تفسير) وأخرى دعاها كشف الإشكالات عن بعض الآيات ، وهى أجوبة عن أسئلة مشكلة فى آيات من القرآن الكريم (مخطوطة بدار الكتب رقم ٨٣٦ تفسير)

واختصر فى الحديث صحيح مسلم .

ووضع فى علوم الكلام كتاب الفرق بين الإيمان والإسلام، وكتاب بداية السول فى تفضيل الرسول .

وفى التصوف — وكانت له يد طولى فيه — ألف بيان أحوال الناس يوم القيامة ، وفوائد البلوى والمحن ، وكتاب حل الرموز ومفاتيح الكنوز تكلم فيه عن بعض أحاديث وألفاظ من كلام القوم ، وكتاب مسائل الطريقة فى علم الحقيقة .

ولم يترك عز الدين كتباً فحسب ، ولكنه ترك تلاميذ صاروا من أعلام الأئمة ، ومن نوابغ العلماء ، نذكر منهم ابن دقيق العيد ، وهو الذى لقب أستاذه بسلطان العلماء ، وعلاء الدين الباجى، والحافظ الدمياطى والدشناوى، وهبة الله القفطى .

أما أخلاقه فأظهرها الصلابة فى الحق والجهر به ، يحاسب غيره عليه ويحاسب نفسه ، ولا يمنعه من الرجوع إلى الحق الخوف من أن يقال أخطأ ؛ فقد أفتى مرة بشىء ، ثم ظهر أنه أخطأ ، فنادى فى مصر والقاهرة على نفسه : من أفتى له ابن عبد السلام بكذا ، فلا يعمل به فإنه خطأ . قالوا : وكان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنادرة والشعر يستشهد به ، وإن كان لم يقل من الشعر سوى بيت واحد هو :

لو كان فيهم من عراه غرام ما عنفونى فى هواه ولاموا

قالوا : إنه أنشده لطلبته ، وقال لهم : أجيزوه فقال عمر بن عبد العزيز بن الفضل الأسوانى :

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه وعلمتها لما سهرت وناموا

وأنشد قصيدة طويلة منها :

مولاى عز الدين عزّ بك الملا فخراً فدون حذائك فيه الهام

لما رأينا منك علماً لم يكن فى الدرس قلنا : إنه إلهام

وآخرها :

جاوزت حدّ المدح حتى لم يطق نظماً لفضلك فى الورى نظّام

فعليك يا عبد العزيز تحية وعليك يا عبد العزيز سلام

كما مدحه الجزار بقصيدة أولها :

(١) هكذا فى طبقات الشافعية ، وفى نجوم الزاهرة (جـ ٧ ص ١١٠) أن أول من بايع الخليفة قاضى القضاة عبد الوهاب ابن بنت الأعز ثم السلطان ثم عز الدين بن عبد السلام ثم الأمراء والوزراء على مراتبهم .